الحزن الرومنسی بین الأدب الحدیث و رومیات الحمدانی

تاریخ الوصول: ۱۳۹۰/۶/۳۰هـ. ش
تاریخ القبول: ۱۳۹۰/۹/۱۳هـ. ش

مهدی ممتحن*
زهرا مهاجر نوعی**

الملخص

الحمدانی ممن یمتازون بقوة الشخصیة إلی جانب الروح الرومانسیة التی عرف بها من خلال شعره ومعاناته، هذا وإنه من خلال تمثله لتلک الروح کان عطاؤه الشعری عطاء أدبیا نادرا.ویبیّن لنا حزن أبی فراس الرومنسی فی رومیاته الرقة المؤثرة، والعذوبة المتقطرة، وهو کلام رائع یترک فی النفس أثرا عمیقا. وقد رقَّق الألم عاطفة أبی فراس، ووسع نطاقها، ووجهها شطر الطبیعة حتی أصبح یُحِسُّ لکل شیء نفساً تحنو علیه وترید الاشتراک فی أحزانه.

وکان أبوفراس رومنسیاً فی عمق عاطفة الوجد عنده، أو ذلک الحب الشدید الخالص لأمه ولملاعب صباه فی منبج ذات الطبیعة الخلابة، حسب وصفه لها، ولتعلقه الشدید بسیف الدولة أبیه الروحی. ویلجأ أبوفراس إلی الحزن الرومنسی لأنه یبعد من أسرته، ومواطینه وبالالتجاء إلی هذا الحزن یرید أن یسکن نفسه ویظهر الحزن الرومنسی فی الکائنات الموجودة فی الطبیعة.

الکلمات الدلیلیة: الأدب الحدیث، الحمدانی، الرومیات، الحزن الرومنسی، الرمز، الخیال.

*. أستاذ مشارک بجامعة آزاد الإسلامیة فی جیرفت، ایران.
**. خریجة جامعة آزاد الإسلامیة فرع علوم وتحقیقات بطهران، ایران.
Dr.momtahen@gmail.com

المقدمة

قد اشتهر بعض من الشعراء فى العصر العباسى وإنهم كانوا فى ظل الإمارات، كالمتنبى (٩١٥-٩٦٥م)، وأبى فراس الحمدانى (٩٣٢-٩٦٨م)، وأبى العلاء المعرى (٩٧٣-١٠٥٧م)، و... ويخرق هؤلاء الشعراء خرق التقاليد من أساليب الشعر فى العصر الجاهلى إلى حدٍّ ما. وقد اهتم الشعراء بالأوزان القصيرة والمجزوءة التى تلائم نمط الحياة الجديدة وما استجد فيها من غناء، ولهو، وطرب ولكنّ الحمدانى قد نهج نهج الشعراء القدماء الذين كانوا يميلون إلى الأوزان الطويلة الكثيرة المقاطع فى رومياته، وكان الشعراء الآخرون مطلعين على خرق التقاليد، ولكن أبافراس بسبب أسره لم يطّلع على هذا الأمر. والمهم أن أبا فراس بعد أسارته وألمه فى السجن تظهر الملامح الرومنسية فى رومياته خاصة الحزن.

وكانت الرمزية من معالم التجديد فى الأدب العباسى، فلما جاء عهد العباسيين بدأ به عهد جديد، له طابع يغاير كثيرا طابع العروبة الخالصة التى تجلت فى الأزمنة السابقة. وقد كان إلى جانب الضغط الفكرى فى هذا العصر، لونان آخران من الضغط كان لهما أثرهما فى الرمزية، أعنى بهما الكبت السياسى، والضيق الاقتصادى. وفى ظل هذا الكبت السياسى كان لابد أن يتخذ التعبير الأدبى أحيانا شيئاً من الرمز لينجو صاحبه من الأذى، والضرر، وهكذا كان الضغط بجميع ألوانه الفكرية، والسياسية، والاقتصادية عاملا له أثره فى الرمزية فى هذا العصر. (انوار وگلچين راد، ١٣٨٩ش: ٧١)

ولكن أبافراس الحمدانى اهتم بالرمز والمعالم الأحزى فى الرومنسية؛ لا بعنوان مدرسة مستقلة لأن المذهب الرومنسى ما كان فى هذا العصر بل اهتم بهذه المعالم من خلال أحزانه حتى ينتقل شعوره إلى المخاطب ويرقق العاطفة لديه.

فلذا حاول المقال أن يبحث الحزن الرومنسى فى روميات أبى فراس من الجوانب المختلفة كلجوء الشاعر إلى عالم الطبيعة ومناجاته الطيور لوَحدِه وغربته، واهتمامه بالوجدان. وحزن أبى فراس لايصبح سبب فشل فتوته بل عامل هام فى ربط الشاعر بالصبر الطويل أو مناجاته الحمام. والأمير الفتى لايليق به أن يبقى فى الأسر أو يُفرج عنه كسائر الأسرى أو ينتظر فداء من أحد لذا يدخل كسائر الشعراء الرومنيسين عالم

الخیال.

لکنّ شاعرا عربیا عاش کأبی فراس فی القرن الرابع الهجری، لایجوز أن نطلق علیه لقب: الشاعر الرومنسی... مادامت قوالبه الشعریة وموضوعاته، هی هی، کغیرها من قوالب وموضوعات الشعر العربی الکلاسیکی المعروف... إلاّ إذا کان ذا روح رومنسیة... یعیش حاله من التفرد، والانتماء والتنکر للقیم السائدة... والهذیان بقیم جدیدة... إن رومنطیقیته جاءت عفو فتوته، وشبابه المأساوی، فی عصر لم تعرف الرومنطیقیة کفلسفة أو مذهب، وإن کان یحمل کل دوافعها.

إن أبافراس کان فی بعض مواقفه، وبعض خصائصه النفسیة ذا مزاج رومنسی، أو نسق رومنطیقی علی حد تعبیر أدونیس: «إنه کان یقیم علاقة انسجام تام بین عالمه وعقله، بین ما یدعیه من قیم فروسیة، وبین واقعه المریر، مترفعا بهذا الواقع إلی مستوی القیم.» (شرف الدین، لاتا: ۷۰)

استطاع أبوفراس أن یحرک عاطفة المخاطب بعاطفته الصادقة، وتشبیه نفسه فی طهارتها وهدیلها بالطیور خاصة الحمامة لأنّ الحمامة رمز نفسه البریئة والطاهرة. لکن، ما أنشد أبوفراس فی رومیاته خاصة فی مجال الحزن فی الشوق إلی الوطن، والدیار، والأصدقاء، والأم، والأخت، والأخ علی هذا الأساس یصدر حزنه من عاطفة صادقة تثیر عاطفة المخاطب.

وتساید هذه العاطفة الطبیعة الطاهرة مع کل ما تکون فیها. ولکن من جهة الموقف موقف یصدر من نفسه من أجل أسارته ومصاعب الأساره وتقلبات الدهر والابتعاد عن الأصدقاء والأقرباء خاصة من أمه.

۱. الرومانسیة معنی

قد اقتبست الرومانسیة اللغة الانجلیزیة عن الفرنسیة فحملت معنا الخیال والمغامرة. وأول مرة استعملت هذه اللفظة کانت تدل علی نوع من الإغراق فی الخیال.

وبالنسبه إلی الفرنسیة فقد استعملت فی أکثر من معنی. لکننا نؤکد علی نقطة هامة فی تطور هذه الکلمة، وهی المعنی الخاص بالحنین والحزن علی شیءٍ من السرد الذی

أخذت تعتاد عليه هذه الكلمة. (شكيب أنصارى، ١٣٨٤ش: ١٤١)

٢. الأدب الرومانسى

الأدب الرومانسى أدب ثائر، يهتمّ بمصالح الفرد ويعتدُّ به، وينتصر له ضدَّ مظالم المجتمع. وكان ذا طابع إنسانى شعبى فى اختيار أشخاصه وموضوعاته، ثم التحدث عن المشاعر والعواطف الفردية، والتعبير عن آمال الطبقة الوسطى، وكان لهذا الاتجاه نتائج ثورية خطيرة تَمَسُّ قضايا الدين والمجتمع والطبيعة والعاطفة بعامة. (شكيب انصارى، ١٣٨٤ش: ١٤٣)

٣. المدرسة الرومانسية

استطاع خليل مطران (١٨٧٢-١٩٤٩م) أن يؤسس المدرسة الرومانسية وقد ساعده على ذلك اطلاعه على نماذج الشعر الفرنسى وبخاصة إرهاصات الشعراء الرومانسيين عندما هاجر إلى فرنسا فرارا من ظلم وتعسف الحكم العثمانى؛ ونشأته فى أحضان طبيعة لبنان الغنّاء مما دفعه إلى التغنى بمفاتنها والمشاركة النفسية معها؛ وعواطفه الجياشة وأحاسيسه المرهفة ونفسه التواقة للحب والخير والجمال. (خورشا، ١٣٨٦ش: ١٠٦)

٤. أبرز عناصر الرومانسية

١. الرومانسية الذاتية وهى تتجه إلى ذات الإنسان لتعبر عن عواطفه وانفعالاته ونزعاته.

٢. الرومانسية فرار إلى الله من مأساة الوجود الذى صدئت أعماقه.

٣. الرومانسية لاتتنكر للعقل ولكنها لاتحلّه المحل الأول. (أصلانى، ١٣٧٩ش: ١٥و١٦)

٤. الرومانسيه تؤمن بالواقعية وتتوهم تلك العوالم غير الواقعية لأنها تعتبر التوهم جزءاً واقعياً من حياة الفرد وأحلام اليقظة مثالها الحى. (پروينى، ١٣٨١ش: ٧٥)

٥. تبرز صبغة من الحزن فى الرومانسية غالبا. (شفيعى كدكنى، ١٣٨٠ش: ٧٨و٨٠)

۵. الحزن فی المدرسة الرومانسیة

أحس الرومنسی بالقلق وشعر بالحزن ویهرب إلی الطبیعة أو إلی إله عاطفی أو إلی داخل نفسه یفتش عن ذاته ونتیجة لإحساس الرومنسی بالغربة والألم، یحس بالمعاناة والتعاطف مع المقهورین خصوصا بعد الانقلاب الصناعی وانتشار الطباعة وبروز الطبقة الوسطی وأصبح له جمهور من القراء الذین یعبرون عن أوضاعهم وآرائهم وتطلعاتهم، ونتیجة لألم الرومنسی وشعوره بالحزن والغربة والانطواء علی الذات، انطلق فی عالم الخیال الذی یمثل له عالما مثالیا خاصا غیر محدد بزمان أو مکان، والهروب من الواقع إلی عالم الخیال. (اصلانی، ۱۳۷۹ش: ۱۵-۱۶ و۱۹)

ضاق الرومنسیون ذرعا بالحزن والألم، فترکوا المدن والتمسوا العَراء والسلوی فی الطبیعة التی تمثل فی نظرهم العالم الذی لم تفسده المدینة والقوانین. (الجیوسی، ۲۰۰۱ م: ۳۷۳-۳۸۲)

۶ . أبوفراس[۱] شاعر الرومیات

کان الأسر وآلامه سبب نظم الرومیات، وقد طواها علی ذکریاته، وتطلعاته إلی الحیاة، وما قاسی فی نفسه من جرّائها، کما طواها علی تعزیة لأمّه وأصدقائه، وعلی أشواق لاحدّ لها. رومیات أبی فراس مؤثرة، حافلة بالعذوبة، والرقة. (الفاخوری، ۱۴۲۲ق، ج۱: ۸۱۹)

۷. الحزن فی رومیات أبی فراس الحمدانی

یبرز الحزن فی رومیات أبی الفراس لأنه یصدر أشعاره فی الأسر والمرض، واستزادة

---

۱. الحارث بن سعید بن حمدان التغلبی الرّبعی، ولد فی الموصل سنه (۳۲۰-۳۵۷ق)، فنشأ فی رعایة ابن عمه سیف الدولة یمیزه بالاکرام من سائر قومه، ویصطنعه فی غزواته ویستخلفه علی أعماله، وقد ولاه شؤون منبج. (عبود، ۲۰۰۸م: ۴۷۴؛ الفاخوری، ۱۴۲۲ق، ج۱: ۸۱۹)
أُسر أبوفراس مرّتین وقد تباطأ سیف الدولة فی فدائه، وظل فی أسره إلی سنة (۹۶۶م) وفی سنة (۹۶۷م) مات سیف الدولة فحاول أبوفراس أن یتغلب علی حمص فأرسل أبوالمعالی من قتله، وکان ذلک سنه (۹۶۸م/ ۳۵۷هـ). (الفاخوری، ۱۴۲۲ق، ج۱: ۸۲۰؛ ضیف، ۱۴۲۸م، ج۶: ۲۲۴؛ شرف الدین، لاتا: ۶-۱۱)

سيف الدولة، وفرط الحنين إلى أهله، وإخوانه، وأحبابه، والتبرم بحاله ومكانه عن صدر حرج، وقلب شج، فتزداد رقة ولطافة، تبكّى سامعها، وتعلق بالخفط لسلاستها... . (الحمدانى، ٢٠٠٧م: ٣٧٥؛ الشعار، لاتا، ج١: ١٨٦)

قد رقق الألم عاطفة أبى فراس، ووسع نطاقها، ووجهها شطر الطبيعة حتى أصبح يُحِسُّ لكل شيء نفسا تحنو عليه وتريد الاشتراك فى أحزانه، حتى أن نرى فى رومياته كالشاعر الرومنسى يناجى بالطيور كالحمام إذا هدل، وكان يلجأ إلى أحضان الطبيعة، ويحمّل النسيم رسائل محبته وإخلاصه إلى أهله وأصدقائه ويفضى إلى الليل بخوالج فؤاده. (القطيبى، ٢٠٠٧م: ١)

لكن حزن أبى فراس يبرز بملامح رومنسية فى رومياته وفيها لنفسه ذكرى وحرقة ولهب، ولأمه تعزية وعبرة، ولأصدقائه وأنسابه شوق وتحنان. يبين لنا حزنه بالأغراض المختلفة كالأسارة، وكالطبيعة، ومناجاة الليل، والصبر، والفِداء، و... .

٨. أبوفراس الحمدانى ذو مزاج رومنسى

أبوفراس ممن يمتازون بقوة الشخصية إلى جانب الروح الرومانسية التى عرف بها من خلال شعره ومعاناته فى الواقع... ومن خلال تمثله لتلك الروح كان عطاؤه الشعرى عطاءً أدبيا نادرا.

إن أبا فراس يظل مشدودا فى رواه إلى الوجه المأساوى من الحياة لأنه الأصح والأقوى إثارة وتأثيرا؛ والشعر البديع يقوم بتركيب اللفظ الغريب السهل. يخاطب أبوفراس الاشتياقات، والعذبات، والحنين، والنجوى، والسعادة، والشقاء، والحرمان، والألم، والآمال، والأحلام، والتمنيات، والرجاء، والحرية، والتطلعات الفاضلة، والقيم الخيرة، والذى يخاطب الجمال، والطبيعة، والحياة، والذى يرفض القهر، والظلم، والاستغلال، ويجعل عالما خاصا لشعره له قداسته فى النص فيصل عند ذلك بالمشاعر الإنسانية إلى درجة إنسانية نادرة، ويصل بنا إلى الألفة، والتفاهم النفسى والنقاء العقلى والطمأنينة الروحية. (عبدالرحمن، ٢٠٠٨م: ٨ و٩)

وعلى قول الأستاذ خليل شرف الدين فقد صنف أبوفراس وأمثاله فى الأسلوب

الأدبی من شعراء المدرسة الرومانسية، حيث قال الأستاذ شرف الدين عن أبی فراس: «وقد كان أبوفراس رومنسياً لإيمانه النبيل بقدرته على أن يصبح سيد مصيره وقد عبر عن ذلک فی مواقفه البطولية، وفی فتوته المتعالية الأميرة إنه كان ذا نسغ رومانسی.» (شرف الدين، لاتا: ٧١)

كما قال أدونيس: «إنه كان يقيم علاقة انسجام تام بين عالمه وعقله؛ بين ما يدعيه من قيم فروسية، وبين واقعه المرير، مترفعا بهذا الواقع إلى مستوى القيم.» (أدونيس، ١٩٣٠م: ٧٠)

كان أبوفراس رومانسيا فی عمق عاطفة الوجد عنده، أو ذلک الحب الشديد الخالص لأمه، ولملاعب صباه فی منبج ذات الطبيعة الخلابة، حسب وصفه لها، ولتعلقه الشديد بسيف الدولة أبيه الروحی.

فكانت روملياته أصدق وأجمل رسائل الشوق والعتاب والحنين لأمير حلب، وأسمى آيات التقديس للأمومة، فی الأدب العربی القديم على الإطلاق... روميات عرت لأبی فراس، مجتمعا، كان هو، قبل الأسر، أحد أركانه... وملكا عقيما، كان أول المدافعين عنه... فخسر بها وجوده كأمير وحاكم، لكنه ربح نفسه كشاعر، استطاع أن يغنی آلامه وآماله بحرية تامة وكبرياء متماسک. (المصدر السابق: ٧٦)

٩. دوافع أبی فراس من الحزن الرومنسی

عوامل الحزن الرومنسی عديدة فی العصر الحديث، والعامل الرئيس الذی يضطر الشاعر، أن يبين هذا الحزن هو الاستعمار الذی يسود على البلاد العربية، والفساد، والجور من جانبه ومن جهة أخرى يعيش الشاعر فی المجتمع الذی لايدرک من جانب مواطنيه، وعلى هذا الأساس يحضن الشاعر الرومنسی الطبيعة، ويلجأ إلى عالم الخيال والطبيعة لإظهار آماله ومجتمعه البرىء من الظلم والفساد، وتسايره الحيوانات خاصة الطيور والحيوانات التی تكون رمز طهارة النفس كالحمامة والظبی، وهكذا يبين الشاعر الرومنسی فی العصر الحديث حزنه الرومنسی. لكنّ شاعرا ذو مزاج رومنسی كأبی فراس الحمدانی الذی كان يعيش فی العصر العباسی، لا فی العصر الحديث وهو كان فی

ظل الأمارة، بأى دافع يقوم بالحزن الرومنسى؟

وما هو دوافع حزنه الرومنسى؟ لِنَقُل إن أبافراس يلجأ إلى الحزن الرومنسى لأنه يبعد من أسرته، ومواطنيه، وأصدقائه، ووطنه، وخاصة أمه، وبالتجاءه إلى هذا الحزن يريد أن يسكن نفسه، ويظهر الحزن الرومنسى فى الكائنات الموجودة فى الطبيعة كالسحاب والحمامة، و... وهكذا يريد أن يحرك عواطف وشعور سيف الدولة حتى يعطى الفدية له لذا يشبه الشاعر فؤادَه المحزون كالسحاب الممطرة المكدرة من مصاعب الأسارة والدهر الذى يجرى الدموع ولكن هذه الدموع من أجل شدة المصاعب أكثر انسكابا من المطر وهكذا يحرك شعور سيف الدولة.

وأنتَ إذا سَكَبتَ سَكَبتَ وَقتاً ودَمعِى كلَّ وَقتٍ فى انسِكَابِ

(أبوفراس، ٢٠٠٧م: ٥٧)

على هذا الأساس دوافع أبى فراس من الحزن الرومنسى: تسكين آلام نفسه، وإظهار شوق لقاء أمه، وأصدقاءه و... وتحريک شعور سيف الدولة فى عطاء الفدية مع أنه باسل. (نفس المصدر: ١١-٣٠)

١٠. ملامح الحزن الرومنسى فى روميات أبى فراس الحمدانى

١٠-١. عصى الدمع

وربما كان أروع قصائد أبى فراس حينئذ قصيدته الرائية التى نظمها حين قال أبوفراس وحده من بين الأسرى هو الذى لم نسلب منه سلاحه وقد بدأها بحوار بينه وبين إحدى صاحبه. (ضيف، ١٤٢٨ق، ج٦: ٢٢٧؛ البستانى، لاتا: ٢٥٢)

يعبر أبوفراس عن صبره فى مصيبته، ونستشف منها أمله فى الحرية ويبدأ قصيدته بذكر آبائه وعزته، وعذابه ولوعته. (مناع، ١٩٩٣م: ٢٥٩)

أرَاکَ عَصِى الدَّمعِ، شِيمتُکَ الصَّبرُ أمَا لِلهَوَى نَهى عَلَيکَ ولَا أمر؟[١]

بَلَــى، أنا مُشتَاقٌ، وعِندى لَوعَة، ولـــكِنَّ مِثلى لايذاعُ لَهُ سِرُّ ![٢]

١. عَصِىَ الدَّمع: ممتنعه ٢. اللوعة: الشوق والصَّبابة

إذَا اللَّيلُ، أضوانِی بَسَطتُ يدَ الهَوَى وأذلَلتُ دَمعاً من خَلائقهِ الكِبرُ[1]

(أبوفراس، ۲۰۰۷م: ۱۶۲)

يقول أبوفراس كشاعر رومنسی من حزنه ويستفيد من أسلوب استفهام لأن هذا الأسلوب يقيم حوارا مع الآخر الذی يتطلع إليه الشاعر الأسير ليبثه حزنه وشوقه وهو حوار غزل فيهما فی فتوة وقوة فهو لايبكی بل هو صابر صبر الرجال الأشداء، مع ما يستعر فی قلبه من لوعة إزاء معللته بوصل لاينالله. (القطيبی، ۲۰۱۱م: ۱)

يربط أبوفراس بين زهو الفتی وبين بطولة المغامر وبين الفارس المقتحم، وانكسار الأسير من هنا كان يدخل أبوفراس وبحرية تامة إلى هذا العالم الجديد ويزيد إلى لحظة الحب واللذة نكهة المجد ومذاق الألم، وروعة الفتوة ومأساة المصير ولكی يجد نفسه قبل فوات العمر القصير، عاش بطولة فتية أو فتوة بطلة. (أبوفراس، ۲۰۰۷م: ۱۶۲؛ عبدالرحمن، ۲۰۰۸م: ۲)

ثم يخاطب أبوفراس ظبية لأنه أسير وهو وحيد فی ديار الغربة ويمضی فی حوارها قائلا لها: لاتنكرينی يا ابنة عم فإننی غير منكر فی معمعات المعارک. (أبوفراس، ۲۰۰۷م: ۱۶۴؛ ضيف، ۱۴۲۸ق، ج۶: ۲۲۶)

كأنِّی أنادی دُونَ مَيثاءَ ظَبية، عَلَی شَرَفٍ ظَمياءَ، جَلَّلَها الذُعرُ[2]

تَـــجَفَّلُ حِيناً، ثُمَّ تَدنو كأنَّما تُنادِی طَلاً ظَمياءَ، جَلَّلَها الذُعرُ[3]

فـلا تُنكِرِينی، يابنَة العَمِّ، إنَّه لَيعرِفُ مَن أنكَرتِهِ البَدو والحضرُ

(أبوفراس، ۲۰۰۷م: ۱۶۴)

إن أبافراس يختار حسب قوله الشعری ما يتناسب مع ذوقه وموهبته فتحت تأثير حاله وضغوطها وتحت حالة المعاناة وتجاوبات الأحاسيس يبدع الشاعر وتتجلی المعانی الإبداعية كأحلی ما تكون لدی المبدع الحقيقی.

---

۱. أضوانی: أضعفنی. خلائقه: صفاته. الكبر: الأنفة

۲. الميثاء: ما اتسع من فوهه الوادی. ظمياء: صفة للشفة الذابلة فی حمرة، أو للعين الرقيقة الجفن. جلّلها: اكتنفها. الذعر: الخوف الشديد.

۳. الطلا: ولد الظبيه. الحضر: الركض

١٠-٢. أيا جارتا

عندما يتكلم أبوفراس شعرا عن الفروسية والمحبة والمجد والأسر والحرية وعن الإباء والكرامة والأمومة وعندما يخاطب الحمامة على أغصان شجرة يكون كلاماً شاعرياً وعندما يتحسر. (أبوفراس، ٢٠٠٧م: ٢٨٢)

وقد أثار نواح هذه الحمامة بمرأى منه ومسمع الشجون فى نفسه ويعيذها من نوى وفراق كفراقه، وغربة كغربته، وهموم كهمومه. ويتساءل هل تحمل قوادم هذه الحمامة فؤاداً محزوناً؟

أقــُول، وقَد نَاحَت بِقُربى حَمَامَة أيا جَارَتَا، هَل بَاتَ حَالُكَ حَالى؟[١]
مَعاذَ الهَوَى! ما ذُقتِ طَارِقَة النَّوَى، ولَا خَـــطَرَت مِنكِ الهُمومُ بِبَالِ![٢]
أتَـــــحمِلُ مَحزوُنَ الفُؤَادِ قَوادِمٌ عَلَى غُصُنٍ نَائى المَـــسَافَة عَالِ؟[٣]

(أبوفراس، ٢٠٠٧م: ٢٨٢)

إن أبافراس لايناجى الحمامة باعتبارها كائناً لايعقل... بل هى مجرد رمز. يناجى من خلاله، رموزا كونية، وإنسانية أخرى: كسيف الدولة، وأمه، وأصدقائه، وملاعب صباه والزمن، والقدر... إلى ما هنالك من رموز، كان يمكن، لو كان فعلا، عميق التأثر بالحالة التى هو فيها.

أن يستشرف من خلالها الكثير، الكثير... ولكنه قصر فى هذا المجال وظل أسير طاقته الفكرية والتأملية المحدودة... (شرف الدين، لاتا: ١٤٧)

إنَّ هذه القصيدة مشاركة وجدانية رومنسية رائعة الرمز، بعيدة مدى الإحساس بالتجانس الكونى بين الإنسان، والحيوان، والأشياء... يبثها فتى عاطفى، منذ كان رومنسى الروح منذ الطفولة...

ولعل العامل الرئيس الذى يهتم الشاعر اهتماما كثيرا فى حزنه بالطبيعة خاصة الطيور، والليل، والغزال، و... عزلته عن محيطه الاجتماعى بسبب أسره. ويقول إن الدهر لم

١. المشهور فى هذا البيت: «أيا جارتا هل تشعرين بحالى.»
٢. معاذ الهوى: أعصم الهوى منكِ. النَّوى: الفراق
٣. القوادم: كبار الرِّيش فى جناح الطائر، واحدتها قادمة. النائى: البعيد

ینصف بینهما، ویتساءل کیف یضحک أسیر فقد حریته وتبکی حرة طلیقة؟ بل کیف یسکت محزون ویخرس لسانه وتندب ساليه ندبا متصلا؟ ولا یلبث أن یقول لها: لقد کنت أولی منک بالبکاء لاتنقطع دموعه بل تظل منهمرة، غیر أن دمعی فی الحوادث والنکبات غال لایسیل أبدا، وإنه لیتجشَّم أثقالها ویتحملها قوة.

أیا جارَتَا، مَا أنصَفَ الدَّهرُ بَینَنا! تَعَالَی أُقَاسِـــمکِ الهُمُومَ، تَعَالِی!
تَعَالَـــی تَرَی رُوحاً لَدَی ضَعِیفَة، تَرَدَّدُ فـــــی جِسمٍ یعَذَّبُ بَالِ![1]
أیضحَکُ مَأسُورٌ، وتَبکِی طَلِیقَة، ویسکُتُ مَحزُونٌ، ویندُبُ سَالِ؟[2]
لَقَد کُنتُ أولَی مِنکِ بِالدَّمعِ مُقلَة؛ ولکِنَّ دَمعِی فِی الحَوَادِثِ غَالِ![3]

(أبوفراس، ۲۰۰۷م: ۲۸۲)

کما أننا سبق أن قلنا کثف أبوفراس من استخدام الأسالیب الإنشائیة فی رومیاته من استفهام، ونداء، وأمر، ونهی، وتمن، وهی أسالیب تفرضها الوجدانیة الغالبة علی رومیاته من جهة ومن جهة ثانیة إن هذه الأسالیب تقیم حواراً مع الآخر الذی یتطلع إلیه الشاعر الأسیر لیبثه حزنه وشوقه، أو لیعاتبه ترکه وحیداً فی الأسر أو لیطلب مساعدة فی الخروج من مأزق الأسر. (القطیبی، ۲۰۱۱م: ۱)

لیس بالضروره أن یکون الشعر غامضا أو واضحا فی أسلوبه لأن المهم إبداعیته وتمیزه وقد کان الحمدانی متمیزاً بشخصیته وشعره کذلک. (القطیبی، ۲۰۱۱م: ۱)

۱۰-۳. مصابی جلیل

ومهما یکن من أمر فقد أدرک الشاعر حقیقة الطبیعة البشریة. إنها شدیدة التقلب شدیدة التلوّن، ومن ثم یصعب أن تلقی صدیقا مخلصا وفیا یدوم علی وفائه فی السرّاء والضرّاء. وهو فی هذه الاعتبارات یسمو إلی المواطن الإنسانیة، وینتقل من الذاتیة الخاصة إلی النفس البشریة العامة، ویحاول التغلغل فی عالمها فی بساطة حلوة، ولهجة

۱. البالی: الذی یکاد یفنی
۲. السالی: الذی تطیب نفسه بعد الفراق
۳. أوْلی: أحَقَّ. مقله: العین. الحوادث: المصائب

صادقة. وهو فی تجربته هذه یزداد ألماً حتی قال: (الفاخوری، ۱۴۲۲ق، ج۱: ۸۲۶)

مُصابِی جَلیلٌ، والعَزَاءُ جَمیلُ، وظَـــنِّی بِأنَّ اللهَ سَوْفَ یُدیلُ[۱]
جِرَاحٌ وأسْرٌ، واشتِیَاقٌ، وغُربَةٌ اُحَمَّلُ! إنِّی، بَعــدَهَا، لَحَمولُ!
تَنَاسَانِیَ الأصحابُ، إلاّ عُصَیبَة سَتَلْحَقُ بِالأخرَی، غَداً، وتَحوُلُ[۲]

(أبوفراس، ۲۰۰۷م: ۲۵۲ و۲۵۳)

وفی هذا الجو المضطرب یبصر وجه أمِّه الحنون فیرتعش. إنها ترسل الطرف فی کل جهة علّه یقع علی ظلّ الحبیب. ثم تتوجه إلی سیف الدولة تستحثُّه علی المضیّ فی أمر الفداء. ثم تعود فی خیبتها تحنو علی کآبتها والدموع، یبصر أبوفراس وجهها فیضیف بذلک إلی آلامه آلاماً، وإلی أحزانه أحزاناً وکیف یعزی أمه؟ فهو یتطأمن، ویتظاهر بالصبر. (أبوفراس، ۲۰۰۷م: ۲۵۳)

فَیَا أمَّتَا، لاتَعــدَمی الصَّبرَ، إنَّهُ إلَی الخَیْرِ والنُّجْحِ القَریبِ رَسُولُ[۳]
ویَا أمَّتَا، لاتُحْبطِی الأجْـرَ! إنَّهُ عَلَی قَدَرِ الصــَّبْرِ الجمیلِ جَزیلُ[۴]
وَمَنْ لَمْ یُرِدْهُ اللهُ، فِی الأمْرِ کُلِّه، فَلـــــَیْسَ لِمخلوقٍ إلیه سَبِیلُ

(أبوفراس، ۲۰۰۷م: ۲۵۳ و۲۵۴)

فالحمدانی واثق فی الله ثقة تامة، وهو لاییأس أبدا من فضله ورعایته، مع عزة نفس لاتماثلها عزة بل مع صلابة روح لاتشبهها صلابة.

۱۰-۴. بانَ صَبْری بِبَیْنِ ظَبْیٍ رَبیبِ...

علماً بأنّ الحمدانی أسیر، ومحزون، ولکنه یحفظ فروسیته وحبه. ربما حزن أبوفراس ولکنه لاینسی حبیبته وهو الذی یستوحی شعره من تنوع معاناته وعذابه، وعمق التجربة التی یمر بها ورهافة الإحساس ونبل الصفات التی یتمیز بها عن غیره من البشر. وشعر

۱. جلیل: عظیم. یدیل: یبدِّل الأحوال
۲. العصیبه: تصغیر عصبه، وهی الجماعه. تحول: تتبدَّل، تتغیَّر.
۳. لاتَعدمی: لاتفقدی
۴. لاتُحبطی الأجر: لاتفسدیه، فیذهب سدی. جزیل: عظیم

الحمدانی شعر خاص لأنه مع الأسارة، والحزن، والألم، والبکاء یهتم بشجاعته، وکرمه، وحبیبته. (أبوفراس، ۲۰۰۷م: ۶۰)

وَقَفَتْنی عَلَی الأسَی والنَّحیبِ مُقْــلَتَا ذَلِکَ الْغَزَالِ الرَّبیبِ[۱]
کُلَّمـــا عَادَنی السُّلو؛ رَمَانِی غنْجُ ألْحَاظِهِ بِسَهْمٍ مُصِیبِ[۲]
هَلْ لِصَـــبٍ مُتَیَّمٍ مِنْ مُعِینٍ؟ وَلِدَاءٍ مُخَـامِرٍ مِنْ طَبِیبِ؟[۳]

(أبوفراس، ۲۰۰۷م: ۶۰)

یسلک أبوفراس فی ألمه طرقاً متنوعة وإذ لم یَجِدْ إلی کتم الألم سبیلا اتَّخذ التغنّ بالألم ذریعة لتفرج الکربة، فیلجأ تارة إلی رحمة الله التی تسارع إلی إسعاف البائسین، ویفزع طوراً إلی اعتبارات عامَّة فی نکبات الدهر ومصائبه، وأیضاً نراه أحیاناً یعمد إلی الذکریات، ویرید الشاعر أن ینسی ألمه هکذا. ویخاطب ابنُ عَمه، ویقول أنا بین حالتین منهما: الوصال والهجر، وعلماً بالحب أنسی آلام الأسارة وألتئم جروح الفؤاد، ولکن «بَانَ صَبْری بِبَیْنِ ظَبْیٍ رَبیبِ.» (أبوفراس، ۲۰۰۷م: ۶۰ و۶۱؛ الفاخوری، ۱۴۲۲ق، ج۱: ۸۲۳)

أنَـــا فِی حَالَتَیْ وِصَالٍ وهَجْرٍ مِنْ جَوَی الحُبِّ فِی عَذَابٍ مُذیبِ[۴]
یَـا خلیلَیَّ، خَلِّـــیانِی ودَمْعِی إنَّ فِـــی الدَّمْعِ رَاحَة الْمَکرُوبِ[۵]
بَانَ صَبْری لمَّا تَأمَّلَ طَـــرْفِی: بَانَ صَبْـــــری بِبَیْنِ ظَبْیٍ رَبیبِ[۶]

(الحمدانی، ۲۰۰۷م: ۶۰ و۶۱)

إنَّ ما یطلبه هُو أن یحول صبره دون یأسه، وأن یکون له من الدمع معوان علی الصبر، من غیر أن یؤدِّی به الدَّمع إلی الضعف.

۱۰-۵. وعَارَضَنِی السَّحَابُ

فأرسلت آلام الحمدانی الأنّاتِ المتوجِّعة الجریحة، وتَجلَّت نفسه علی ما هی، وإذا

۱. المقلتان: العینان. الربیب: المربَّی. ۲. ألحاظُه: عیناه.
۳. الصَبّ: العاشق. معین: مساعد. مخامر: مخالط الجوف
۴. وفی روایه «أذی» مکان «جوی». الوِصال: مبادله الحب
۵. المکروب: المحزون، المصاب ۶. الربیب: المرَّبی

بشعره يذوب رقّة وعذوبة وشجوا، وينساب فى طريقه إلى القلب من غير ما عائق يعترض سيره. يناجى الحمدانى كسائر الشعراء الرومنسيين السحاب، ويتوجه إلى أحضان الطبيعة ويهدأ نفسه باللجوء إلى عالم الخيال، يقول أبوفراس للسحاب، دموعى أشدّ انسكابا منک ويعبر دموعى عن فؤادى الحزين، وهل فى فؤادک حزن كحزنى، ودمع من الألم والحزن مثلى: (الحمدانى، ٢٠٠٧م: ٥٧)

وعارَضَنِى السَّحَابُ فَقُلْتُ: مَهْــلاً فَإِنِّى مِـــنْ دُموعى فى سَحَابِ
وأَنْتَ إذَا سَكَبْتَ؛ سَكَبْتَ وَقْـــتاً ودَمـــْعِى كُلَّ وَقْتٍ فى انْسِكَابِ
فَهَبْکَ صَدَقْتَ: دَمْعُکَ مِثْلُ دَمْعِى، فَهَلْ بِکَ فِى الجَوَانِحِ مِثْلُ مَا بِى؟[1]

(الحمدانى، ٢٠٠٧م: ٥٧ و٥٨)

وهكذا نرى أن الحمدانى يتألم، وأن الألم ينطقه بما ينظم، وأن ذلک الألم لايندفق فى انفجار شديد، بل تُليِّن حدة انفجاره عواطف استسلام. وهكذا كان أبوفراس الحمدانى شاعر الوجدان، وكان للألم فى حياته أعظم الأثر فى إثارة العاطفة، وبناء القصيدة وسكب المعانى الرقيقة فى أعذب لفظ وأسهل عبارة. (شرف الدين، لاتا: ١٤١-١٤٥؛ الفاخورى، ١٤٢٢ق، ج١: ٨٢٩ و٨٣١)

النتيجة

كان أبوفراس الحمدانى رومنسيا فى عمق عاطفة الوجد عنده، وذلک للحب الشديد الخالص لأمه ولملاعب صباه فى منبج ذات الطبيعة الخلابة، حسب وصفه لها، ولتعلقه الشديد بسيف الدولة أبيه الروحى. والحزن موضوع رئيس فى رومياته، ولكنّ الألم والحزن لايصبح علّة لفشله، لأنه يهتم بالوجدان ويناجى الطبيعة كالسحاب، والطيور، والله عزّ وجلّ؛ لأنه قد عزل عن محيطه الاجتماعى بسبب أسره ويربط الشاعر بين زهو الفتى وبين بطولة المغامر، وبين الفارس المقتحم، وانكسار الأسير.

وكما رأينا يتميز شعره بالمعانى الوجدانية، والفروسية، وحلم الحرية، والاشتياق، و... وقد كثف أبوفراس من استخدام الأساليب الإنشائية فى رومياته وهى أساليب تفرضها الوجدانية الغالبة على رومياته وهذه الأساليب تقيم حواراً مع الآخر الذى يتطلع

١. الجوانح: الضلوع

إليه الشاعر الأسير ليبثه حزنه وشوقه. وعاطفته عاطفة صادقة لتعبير حزنه ويستعمل السحاب والحمامة وسائر الأشياء مع حزنها فی الطبيعة والسحاب رمز فؤاده الحزين والبكاء والحمامة رمز نفسه ومن خلالها يخاطب سيف الدولة أو أمه أو مواطنيه ويتأثر مخاطبه هكذا؛ وعلى هذا الأساس كان موقف أبی فراس فی روميا‌ته من الحزن موقفا يصدر من صدره من أجل أسارته، وآلامه، وابتعاده من وطنه.

المصادر والمراجع

انوار وگلچين راد، سيد اميرمحمود وغلامرضا. ۱۳۸۹ش. *الرمزية فی الأدبين العربی والغربی*. فصلية التراث الأدبی. السنة الثانية، العدد السادس. جامعه آزاد الإسلامية فی جيرفت.

البستانی، بطرس. لاتا. *منتقيات أدباء العرب فی العصر العباسی*. دار نظير عبود.

الجيوسی، سلمی. ۲۰۰۱م. *الاتجاهات والحركات فی الشعر العربی الحديث*. الطبعة الأولی. مركز دراسات الوحدة العربية.

الحمدانی، أبوفراس. ۲۰۰۷م. *ديوان أبی فراس الحمدانی*. شرح خليل الدويهی. الطبعة الثامنة. بيروت: دار الكتاب العربی.

خورشا، صادق. ۱۳۸۶ش. *مجانی الشعر العربی الحديث ومدارسه*. چاپ دوم. تهران: انتشارات سمت.

شرف الدين، خليل. لاتا. *أبوفراس الحمدانی فتوة رومنسية*. بيروت: داروكتبة الهلال.

الشعار، فوّاز. لاتا. *الشعر العرب*. إشراف د.إميل يعقوب. بيروت: دارالجيل.

شفيعی كدكنی، محمدرضا. ۱۳۸۰ش. *شعر معاصر عرب*. چاپ اول. تهران: انتشارات سخن.

شكيب انصاری، محمود، ۱۳۸۴ش. *تطور الأدب العربی المعاصر*. اهواز: نشر دانشگاه شهيد چمران.

ضيف، شوقی. ۱۴۲۸ق. *تاريخ الأدب العربی (عصر الدول والإمارات)*. منشورات ذوی القربی.

عبود، خازن. ۲۰۰۸م. *معجم الشعراء العرب*. مراجعة وتدقيق الدكتور رحاب عكاوی. بيروت: رشادبرس.

الفاخوری، حنا. ۱۴۲۲ق. *الجامع فی تاريخ الأدب العربی*. منشورات ذوی القربی.

ممتحن، مهدی. «الأدب النسائی مصطلح يتأرجح بين مؤيد ومعارض». فصلية دراسات الأدب المعاصر. صيف ۱۳۸۹ش. العدد۷. صص۱۳۵-۱۵۲.

مناع، هاشم. ۱۹۹۳م. *روائع من الأدب العربی*. الطبعة الثالثة. بيروت: دارالفكر العربی.

نظام تهرانی وواعظ، نادر وسعيد. ۲۰۰۰م. *نصوص من النثر والشعر منذ صدر الإسلام حتی سقوط بغداد*. تهران: انتشارات دانشگاه علامه طباطبايی.